المقـــدمـــــة

(١)

لا تكاد الدراسات النقدية تولى اهتماماً كبيراً للكاتب والروائي "محمد فريد أبو حديد"[١] (١٨٩٣ – ١٩٦٧)، رغم أدواره الكبرى في الثقافة المصرية المعاصرة، فلم ينل حقه من الدراسة والتحليل كما حدث لغيره من الكتاب والأدباء، فلم نتعرف بشكل واضح على تراثه، الذى سعى من خلاله إلى التمرد على القديم الجامد، كما تمرد على التبعية الأجنبية، فأراد من خلال هذه الأعمال، أن يبحث عن الخصوصية القومية، وتربية الوجدان القومي، والتأكيد على تاريخ وطنه، وتأسيس معنى الوطنية، في وطن يتطلع إلى النهضة والاستقلال، عبر صياغة فنية في أنواع أدبية مختلفة، مال بعضها إلى التجديد، واتجه في بعضها الآخر وجهة تقليدية.

---

(١) ولد "محمد فريد أبو حديد" بدمنهور في أول يوليو عام ١٨٩٣، لأب هو "أحمد على أبو حديد" كان يعمل موظفاً بدمنهور، ثم انتهى به الأمر إلى الاشتغال بالزراعة في أواخر حياته، وكانت أمه عريقة الأصل، حيث تمت بصلة كبيرة إلى بيت المحدث الأكبر شيخ الإسلام، وشيخ الجامع الأزهر "سليم البشري"،وكان عمه "محمود بك أبو حديد" رئيساً للنيابة في دمنهور، ويبدو أن علاقة الأسرة بهذا العم، لم تكن طيبة.

قضى "أبو حديد" طفولته في أحضان الريف في مدينة (دمنهور) حيث يوجد بها ضريح سيدي "أبو الريش" و"أبو طاقية" – وقد ورد ذكرهما في بعض رواياته – و (دسونس) التى ورد ذكرها في رواية "صحائف من حياة"، وقد ألحقه أبوه بمدرسة" رأس التين" الثانوية بالإسكندرية، ثم حصل على البكالوريا عام ١٩١٠ من مدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية، وقد كان "أبو حديد" يتمنى أن يلتحق بمدرسة الحقوق، ولكن عجز والده المادي لم يساعده على ذلك، فالتحق بمدرسة المعلمين العليا، وتخرج منها عام ١٩١٤، وفي أواخر هذه المرحلة توفى والده، وقد ترك موت والده أثراً حزيناً في نفسه.

قضى "أبو حديد" أحد عشر عاماً في التعليم بالمدارس التابعة لوزارة الأوقاف، ثم أضيفت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف بعد ذلك، ثم انتقل إلى وظائف أخرى مثل قسم الصحافة بوزارة الداخلية، وفي عام ١٩٤٢ عمل سكرتيراً عاماً لجامعة الإسكندرية، وفي عام ١٩٤٣، عمل وكيلاً لدار الكتب المصرية، ثم عميداً لمعهد التربية بوزارة المعارف، وفي عام ١٩٥٠ عين مديراً للجامعة الشعبية، ثم مديراً لإدارة مكافحة الأمية، وفي عام ١٩٥٢ أصبح وكيلاً مساعداً لوزارة المعارف، كما عمل مستشاراً فنياً لوزارة المعارف الليبية، وأسهم في إنشاء الجامعة الليبية، وأخيراً رأس تحرير مجلة الثقافة ابتداءً من يونيو عام ١٩٦٣ إلى حيث توقفت عن الصدور عام ١٩٦٥، وقد منحته الدولة جائزتها التقديرية عام ١٩٦٤ .

وقد أصيب في آخر حياته مع الشيخوخة وكبر السن، بالتهاب في الأعصاب، فداهمته الآلام، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٨ من مايو عام ١٩٦٧، عن عمر يناهز أربعة وسبعين عاماً.

وقد اعتمدت في الحديث عن حياته ونشأته، على محاورات شفوية مع أفراد أسرته، وعلى "محمد عبد المنعم خاطر": محمد فريد أبو حديد، حياته وأدبه، رسالة دكتوراه مخطوطة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة،١٩٧٣ ، ص ص ٢٧ – ٣٨ .

لذلك رأيتُ أن ألقى الضوء على فن الرواية لدى الكاتب، الذى لم يحظَ بالاهتمام الكافي من قِبَل النقاد والدارسين رغم أهميته، حيث كان هذا الفن هامشياً حينما شرع الكاتب في كتابته، فقد كان "أبو حديد" رائداً من رواد الكتابة في هذا النوع الأدبي في التاريخ الأدبي العربي المعاصر، فكانت البدايات الأولى لأعماله الروائية ممثلةً في روايته "صحائف من حياة" التى ظهرت عام (١٩٢٤)، وهي رواية ترجمت حياة "أبو حديد" ترجمة رومانسية في مرحلة الشباب، فكانت بمثابة صدى لحياته، وخواطره في ذلك الوقت، ثم تتابعت أعماله الروائية التى بدأت تنضج شيئاً فشيئاً.

ولقد حظيت الرواية التاريخية بالنصيب الأكبر من اهتمام "أبو حديد"، فقد كان الكاتب مولعاً بالتاريخ، وحوادثه وشخوصه، وكان مطلعاً على كثير من الكتب والدراسات المتصلة به، وقد عمل مدرساً للتاريخ، وكان التاريخ في صدارة اهتماماته، حيث كان أكثر ارتحاله إليه بخياله، حيث العصر الجاهلي وبطولاته، إلى جانب روايات أخرى تنوعت مصادرها.

(٢)

وقد أردت أن أدرس هذا الموضوع من جديد، على الرغم من أن أعمال محمد فريد أبو حديد الروائية "كانت موضوعاً للبحث من قبل دارسين سابقين، وكان أول من تناوله بالدراسة في رسالة جامعية هو "منصور الحازمي"، وهي رسالة قدمت إلى جامعة لندن لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٦٦، وكانت بعنوان (محمد فريد أبو حديد ... كاتب الرواية) واتبع فيها المنهج التاريخي، فتناول في الفصل الأول من الدراسة (الأدب القصصى قبل محمد فريد أبو حديد)، وفي الفصل الثاني (أبو حديد كاتب الرواية)، وأما الفصل الثالث فقد اشتمل على دراسة للبناء القصصى في كل من رواية ("ابنة المملوك" أو التجربة الأولى) و ("وزنوبيا" أو "أبو حديد" في مرحلة الأربعينات)، وأنا الشعب أو "أبو حديد" بعد سنة ١٩٥٢).

ولا أستطيع أن أنكر إعجابي بأسلوب الرجل في تناوله لهذا الموضوع، فقد كان سابقاً على عصره، وإن كان الباحث قد وقع في بعض الأخطاء من بينها أنه جعل "صحائف من حياة"، تنتمي إلى فن المسرح، في حين أنها أولى روايات الكاتب ، ثم ذكر أن له مسرحية غنائية تسمى "عبدة الشيطان"، وهذا غير صحيح إذ أن اسمها الحقيقي هو "عبد الشيطان".

ثم تناوله "محمد عبد المنعم خاطر" في أطروحة للدكتوراه عام (١٩٧٣) بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة وعنوانها (محمد فريد أبو حديد، حياته وأدبه)، وقد طبع جزء منها بهذا

العنوان عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد تناول أعماله الروائية بشكل عَرضي، هامشي، لأنه كان مشغولاً بدراسة نشأته وحياته، وقد أنفق في الحديث عن حياته وتربيته باباً كاملاً في رسالته استغرق ستاً وستين صفحة، كما أنه كان موزع الفكر ما بين أعمال "أبو حديد" على اختلاف ألوانها ما بين رواية، ومسرح، وشعر، وقصة قصيرة، فلم يتناول أعماله الروائية بشكل دقيق وكافٍ.

كما تناول رواياته التاريخية "يحيى عبد الهادي عبد العزيز" في رسالة ماجستير موضوعها (القصة التاريخية في أدب محمد فريد أبو حديد) بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر عام (١٩٨٩)، وقد أنفق الباحث كذلك وقتاً طويلاً في الحديث عن حياته ومولده ونشأته، فجاء الفصل الأول من الباب الأول في الرسالة متضمناً لهذا الجانب الشخصي عند "أبو حديد" وأصدر أحكاماً ذاتيةً تفتقر إلى المعايير النقدية الدقيقة، كالحديث عن أشياء من خارج النص الروائي؛ سياسية واجتماعية ونفسية، واشتملت رسالته على ثلاثة أبواب تناول فيها أعمال الكاتب وعناصر بنائها، ولكن كان ذلك بشكل مدرسى تعليمي محض، ففى الفصل الثاني من الباب الثالث تحدث عن (الأسلوب) ثم (الأسلوب عند الأدباء)، ثم (الفرق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي) ثم (الأسلوب القصصى وخصائصه)، ثم تحدث (عن أهمية الأسلوب)!،كما أنه يعتمد في تحليله لرواية "زنوبيا ملكة تدمر" على حكاية الأحداث والوقائع، حتى أنه لم يقم بقراءة الرواية – على ما أعتقد – لأن "زنوبيا" لم تُقْتَل في نهاية الرواية كما ادعي الباحث، حيث قال : "وبعد مقتل زوجها تأخذ بثأره، وتشن الحرب على الروم ولكنها تهزم، وأثناء محاكمتها يعترف "لونجين" معلمها كذباً بأنه هو الذى حرّضها على الحرب لكي يخفف العقوبة عليها ولكنهما يقتلان سوياً..."، وهذا لم يحدث بل أسرت الملكة فقط على يد الإمبراطور "فاليريان"، وقد عاملها الإمبراطور معاملة الملكات لا الأسيرات.

وقدم "عيسى محمد عفيفي" دراسة عنوانها (القصة التاريخية بين على الجارم ومحمد فريد أبو حديد" عام (١٩٩٦) حيث حصل بها على درجة الدكتوراه بكلية اللغة العربية بالمنصورة جامعة الأزهر، ولكنه قام باتباع ما أسماه منهجاً تكاملياً وفنياً، فكان هناك خلط، وعدم وعي بالمنهج الذى اتبعه في دراسته، حيث قام بموازنة بين أعمال "على الجارم" وأعمال "أبو حديد" فخضع في تحليله للشخصيات والأحداث والزمان والمكان لخليط غير متجانس من المناهج، حيث يقول في مقدمة رسالته: "ولم يمنعني ذلك كله من الأخذ بأصول المنهج التاريخي أو النفسي في الدراسة..."، فما علاقة المنهج التاريخي بالمنهج النفسي؟ كما أنه استعان بكتب

ومراجـع قديمـة قـد لا تلـم بشـكل أساسـي بمـادة الروايـة التاريخيـة، فاسـتعان وفقـاً لـذلك بـأدوات وإجراءات بعيدة عن جوهر العملية الإبداعية.

وقد كانت هذه الأسباب آنفة الذكر هي التى دعت إلى أن أعيد دراسة أعمال الكاتب مرة أخرى، فقد كانت تلك المناهج التقليدية التى استخدمت من قبل ليست ذات جدوى إذ أنها غير قادرة على استخلاص سمات إبداعه الروائي على نحو فاحص ودقيق، حيث انشغلت عن النص الأدبي بأمور أخرى تقع خارجه مثل حياته، وبيئته، ونشأته.

(٣)

وحاولت الإفادة من "المنهج البينوي" في تحليل النصوص السردية لدى الكاتب، واخترت من بين هذه النصوص نماذج دالة حتى تسنح الفرصة لمزيد من الدرس التفصيلي لهذه الروايات المختارة، وأردت الاستنارة بهذا المنهج الحديث الذى لم يتوسل بـه أحد من الدارسين السابقين علىّ، ويتحدد هذا "المنهج البنيوي" بوصفه منهجاً يتعامل مع النص الأدبي من داخله باعتباره بنية معزولة عن مؤلفها[١]، كما أن النقاد البنيويين يرون أن أيّة نظرية نقدية لا يصح أن تنبثق إلا من الفن ذاته.

وبعد أن رأيت أن المناهج التقليدية التى استفاد منها السابقون لم تعد صالحة بعد أن أدت دورها، آثرت عليها المنظور البنيوي بوصفه أداة للكشف عن البنى العميقة التى تحكم العمل الروائي، باعتباره منهجاً وصفياً لا يصدر أحكاماً لأن الأحكام تتنافي مع طبيعة هذا المنهج الذى تبنيته في هذه الدراسة.

(٤)

وبناءً على ذلك جاءت الرسالة في تمهيد وخمسة فصول، اشتمل التمهيد على موجز لحياة الكاتب ودراسته والوظائف التي عمل بها، كما تحدثت بشكل مختصر عن أعمال الكاتب

---

(١) هاجم "رولان بارت"، في مقال بعنوان "موت المؤلف" نشر أولاً في مانتيا Mantéia V in 1968 عام ١٩٦٨، ووجهة النظر التقليدية الشائعة عن المؤلف بوصفه أساساً لتفسير العمل الفنى. أكد "بارت" بأنه لم يعد باستطاعتنا اعتبار المؤلف هو الملم بالعمل الفني والمؤثر الأساسي فيه. وأضاف أيضاً أن القارئ هو مصدر القوة الأساسي في نص ما. واقترح بارت في نهاية مقاله أن ميلاد القارئ يستدعي بالضرورة موت المؤلف. انظر :

J.A. Cuddon: A dictionary of literary terms and literary theory Blackwell reference, third edition, 1991, P. 67.

ومؤلفاته وتاريخ كل عمل من أعماله، وأمّا عن فصول الرسالة فقد بدأ كل فصل بعرض نظري تلاه تحليل نقدي لكل رواية من الروايات المختارة، وقسمت الدراسة إلى خمسة فصول هي:

- الفصـــل الأول:

رواية "السيرة الذاتية": وعرضت فيه لرواية "صحائف من حياة"، وكان من الطبيعي أن أبدأ بدراسة هذا النوع، لأن رواية الكاتب الأولى تنتمي إلى هذا النوع، ولأن كتابة السيرة الذاتية ظلت تهيمن عليه بشكل أو بآخر في رواياته التالية.

- والفصـــل الثاني:

"رواية القناع": ويدرس رواية "آلام جحا" التى تعد امتداداً لرواية السيرة الذاتية في شكلٍ فنيٍ جديد.

- والفصـــل الثالث:

"شعرية السرد التاريخي": ويعرض بالدرس والتحليل لرواية "زنوبيا ملكة تدمر" والرواية التاريخية من أهم الألوان الروائية التى انشغل بها، وغطت حيزاً كبيراً من مجمل أعماله.

- والفصـــل الرابع:

نحو رواية بوليفونية : يحلل رواية "أنا الشعب"، بوصفها تمثل مرحلة النضج التى انتهت إليها كتابته الروائية.

- والفصـــل الخامس:

"رواية الطفل" : ويعرض فيه لرواية "كريم الدين البغدادي"، والتى تمثل اتجاهاً مغايراً للكتابة الروائية لدى "أبو حديد".

(٥)

إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة جزاءً على ما أنفقوا من جهدٍ ووقتٍ في قراءة هذه الدراسة، وتوجيه الباحثة إلى الصواب، وإرشادها بما ينفع ويثرى هذا البحث.

إلى كل من ساعدني وقدّم إليّ يد العون، لن أنسى صنيعه مادمت حياً....

وأتقدم بخالص الشكر والامتنان للسيد الأستاذ الدكتور "أيمن أبو حديد" نجل الكاتب الروائي "محمد فريد أبو حديد" على تعاونه معي، وإمداده لي ببعض المعلومات، والنصوص الروائية النادرة للكاتب.

ثم أتقدم بجزيل الشكر، وصادق العرفان للأستاذة الصحفية "صافي ناز كاظم" التى وجهتنى ملاحظاتها كما منحتنى معلومات تتصل بأعمال الكاتب، وهو شقيق والدتها، جزاها الله عنى خيراً.

كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور "منصور الحازمي" الذى بعث إلىّ مشكوراً من المملكة العربية السعودية بنسختين من أطروحته "محمد فريد أبو حديد كاتب الرواية"، التى فتحت الباب أمام دراسة السرد الروائي عن هذا الكاتب في دراسات أكاديمية مُعَمَّقة.

وبعد، فأرجو أن أبلغ ما أردت لهذه الدراسة، وأن تحقق بعض الأغراض التى عقدت عليها، والله أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا....

الباحثــة ،